تأجيل ذلك، هو رغبتنا في الانتهاء، أولاً، من طرفين نعتبر علاقتهما بهذا البحث ليست أساسية. ولكن قبل ان نبدأ في بحث العلاقة بين الشيخ وداعية القومية، ثمة سؤال يطرح: لماذا داعية القومية وليس غيره؟ إن جوابنا على هذا السؤال هو ما سيتوضح في ما يأتي.

تياران بدافع واحد

منذ أواخر القرن الماضي، وبداية هذا القرن، تبلور تياران رئيسان، تبادلا عملية تصدر الحركة النهضوية في المنطقة العربية. التيار الأول، وقد عبر عنه بشكل خاص الاتجاه الاصلاحي الجديد في اطار الفكر الاسلامي الحديث، كما دعا ونظر إليه، رائدا هذه الحركة الافغاني ومحمد عبده، فيما اصبح يُعرف بالحركة السلفية الحديثة. أما التيار الثاني، فهو الاتجاه الاصلاحي «القومي»، الذي انبثق في اوائل هذا القرن في صورة عدد من الجمعيات والمنظمات العربية للمطالبة بتحسين الوضع الذي يحتله العرب، في اطار الدولة العثمانية، واجراء اصلاحات تشمل ادارة الدولة العثمانية. ويمكن التعرف على رموز هذا التيار بالعودة الى تاريخ تشكيل حزب اللامركزية، من شخصيات المؤتمر القومي العربي الأول الذي انعقد في باريس العام ١٩١٣.

لقد كان الدافع الرئيس في أساس نشأة كلا الحركتين واحداً تقريباً، وان اختلفت المضامين الايديولوجية والمشاريع السياسية التي تبنتها كلتا الحركتين ودعت الى تحقيقها. هذا الدافع تمثل بالخوف المتزايد الذي باتت تشعر به الانتلجنسيا العربية من خطر التوسع الغربي، وهو الخطر الذي تحول، بعد غزو ايطاليا لليبيا، وبعد هزيمة الدولة العثمانية في حرب البلقان، إلى ان أصبح مصدر فزع حقيقي في الاوساط العربية[١٣]، التي باتت ترى في ضرورة اصلاح الدولة الوسيلة الوحيدة الكفيلة بصد هذه المخاطر جميعاً. ان الملاحظة الاساسية الوحيدة التي يجدر بنا ان نسجلها حول هذا المطلب الذي رفعته كلا الحركتين، أي مطلب الاصلاح، أنه كان يطرح بالتلازم مع التأكيد على مشروعية الحكم العثماني. صحيح ان بعض الأصوات نادى بضرورة الانفصال عن الدولة العثمانية، ونادى بعدم مشروعية الخلافة العثمانية[١٤]، لكن هذه الاصوات بقيت بدون صدى، بل اكثر من ذلك كانت مصدراً للاستنكار من قبل التيارين الرئيسين اللذين كانا يقودان الحركة الاصلاحية.

ان هذه الملاحظة، التي اردنا تسجيلها قبل المضي في بحث الجوانب الايديولوجية والفكرية التي انطوى عليها كلا المشروعين، تكشف، في الواقع، عن جانب هام في تاريخ العلاقة التي نشأت بين هاتين الحركتين. أي عن نوع التعقيدات التي كانت مطروحة في طريقة استجابة كلا الطرفين للتحدي الذي حاولا الاجابة عليه.

لم يكن الخطر العربي، الذي بدأ يواجهه السلفي، في أواخر القرن الماضي، موضوعاً جديداً بقدر ما كان يمثل ذلك، بالنسبة إليه، اعادة اكتشاف لتاريخ سابق. لقد كان الأمر يتعلق بتجربة وجدانية عاشها، قبل ذلك، في الذكرى التي ما تزال حيّة للحروب الصليبية، والمرارة التي خلفها سقوط دولة الخلافة العباسية في كتب التاريخ الاسلامي، والفقه السني. ولذلك، كان الجواب الذي يطرحه داعية السلفية، هو نفس الجواب الذي طرحه، قبل ذلك بعدة قرون، فقهاء التشريع الاسلامي السني، كما نظر إليه ووضع خطوطه العريضة الفقيه الشافعي، أبوالحسن الماوردي، في العصور المتأخرة لاضمحلال الدولة العباسية. أي الدعوة